مدينة عيذاب وصحراؤها

صحراء عيذاب في الصعيد الاعلى شرقي النيل بين قفط والقصير وقد كانت في زمن بطليموس فيلادلفس ومَنْ اعقبهُ من البطالسة الطريق المطروق لتجارة الهند الى الديار المصريّة والاوربية ولم يتغير هذا الطريق في زمن قياصرة الروم . وجعل بطليموس في هذا الطريق عمارات ومخازن للبضاعة وحفر في كل منها بئرًا معينةً واقام فيها الخفراء لحفظ السابلة وبنى على البحر الاحمر مدينة سماها باسم امهِ بيرنيس . وقد وجدت آثار هذه البنايات فاذا كلٌّ منها بناء مربع ضلعهُ من اربعين مترًا الى خمسين وارتفاعهُ من اربعة امتار الى خمسة وفي زواياهُ ابراج سمك حيطانها ثلاثة امتار وداخلهُ فضاء متسع فيهِ بئر مستديرة وبين كل محطة واخرى مسيرة ثلاث ساعات . قال المقريزي في خططهِ ان حجاج مصر والمغرب اقاموا اكثر من مئتي سنة لا يتوجهون الى مكة المشرفة الاَّ من صحراء عيذاب . ثم قال ان هذه الصحراء لم تزل عامرة آهلة بما يصدر عنها ويرد اليها من قوافل التجارة والحجاج الى سنة ستين وستمئة (= ١٢٦١ م) في زمن الخليفة المستنصر فانقطع الحج من البر الى ان كسا السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الكعبة وعمل لها مفتاحًا واخرج قافلة الحجاج من البر فسلك الحجاج هذه الصحراء على قلّة واستمرّت بضائع التجار تحمل من عيذاب الى قوص حتّى بطل ذلك سنة ست وستين وسبع مئة (= ١٢٦٤ م) ونلاشى امر قوص .

قال وعيذاب مدينة على ساحل بحر جدّة اكثر بيوتها اخصاص وكانت من اعظم مراسي الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة فلما انقطع ورود المراكب اليها صارت عدن المينا العظيم واستمرّت على ذلك الى عام بضع وعشرين وثمانماية فصارت جدّة اعظم المراسي

وقال الشريف الادريسي ان من المدن التي في الاقليم الخامس مدينة عيذاب وهي على ساحل بحر القلزم واليها تنسب الصحراء المجاورة لها وعادة المتوجه الى جدّة ان يسافر من عيذاب وعرض البحر من هذا الموضع يوم وليلة وفي عيذاب حاكمان احدهما من قبل رئيس النجعة والآخر من قبل والي الديار المصريّة وعادة الامير البجوي الاقامة في الصحراء ولا يدخل المدينة الاَّ نادرًا وكان اهل عيذاب ينتقلون في ارض النجاة للتجارة ويجلبون منها الزبيب والعسل واللبن وكان يؤخذ هناك من حجاج بلاد المغرب على كل انسان عشرة دنانير

وقال ابو الفدا ان مدينة عيذاب على ثمان وخمسين درجة من الطول واحدى وعشرين

من العرض وقال في مكان آخر واختلف فيها « فبعضهم يحدّ ديار مصر على وجه تدخل فيه وهو الاشبه لان الولاية فيها من مصر وهي من اعمال مصر حقيقةً وبعضهم يجعلها من بلاد البجا وبعضهم يجعلها من بلاد الحبشة وهي فرضة لتجار اليمن وللحجاج الذين يتوجهون من مصر في البحر فيركبون من عيذاب الى جدّة قال ابن سعيد وعرض البحر بين عيذاب وجدة درجتان وهي اشبه بالضيعة منها بالمدن » انتهى

وقد ظن البعض ان ابا الفدا لم يعلم موقع عيذاب أفي بلاد مصر هو أم في بلاد البجة ام في بلاد الحبشة مع ان كلامهُ صريح في ان الاختلاف هو في تخطيط هذه البلدان فمن مدّ حد بلاد الحبشة شمالاً الى ابعد من عيذاب ادخل عيذاب فيها ومن مدّ حد بلاد مصر جنوباً الى ابعد من عيذاب ادخل عيذاب فيها ومن قلّص حدي البلادين عنها جعلها من بلاد البجة

وفي درر الفوائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ان عيذاب مدينة على ساحل بحر جدة غير مسوّرة اكثر بيوتها الاخصاص وفيها الآن بناء مستحدث بالجص وهي من اجلّ مراسي الدنيا بسبب ان مراكب اليمن والهند تحطّ فيها وتقلع منها زيادة على مراكب الحجاج الصادرين والواردين وهي في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل بها شيء الاّ المجلوب لكن اهلها يرتفقون بالحجاج والتجار ولهم على كل حمل طعام يحملونهُ ضريبة معلومة خفيفة المؤنة وما من اهلها ذوي اليسار الاّ من لهُ الجلبة (نوع من السفن) والجلبتان تحمل الحجاج ذهاباً وإياباً فهي تعود عليهم برزق واسع . وفي بحر عيذاب مغاص من اللؤلؤ في جزائر قريبة منها يستخرج منهُ جوهر نفيس لهُ قيمة سنية يذهبون الى تلك الجزائر في الزوارق ويقيمون فيها فيعودون بما قسم لهم كل واحد بحسب حظهِ من الرزق والمغاص بها قريب القعر ويستخرجونهُ في اصداف لها ارواح كأنها نوع من الحيتان اشبه شيء بالسلحفاة فاذا انشقت ظهرت الشفتان من داخلها كانها محارتا فضة ثم يشقون عليها فيجدون بها الحبة من الجوهر قد غطّاها لحم الصدف فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ

وعيذاب لا رطب فيها ولا يابس عيشهم بها عيش البهائم فسبحان محبب الاوطان الى اهلها على انهم اقرب الى الوحش منهم الى الانس . والركوب من جدّة اليها آفة للحجاج عظيمة والاقل منهم من يسلم وذلك ان الرياح تلقيهم على الاكثر في مراسٍ بصحارٍ يتعدّى منها مما يلي الجنوب فينزل اليهم البجاة وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال فيكثرون منهم القتال ويسلكون بهم غير طريق الماء فربما هلك اكثرهم عطشاً واخذوا ما معهم من نفقة وسواها . ومن الحجاج من يعتسف تلك المجهلة على قدميهِ فيضل ويهلك عطشاً والذي يسلم منهم يصل

الى عيذاب في اسوإ حال . وجلاب هذا البحر لا يستعمل بها سمار البتة وانما هي مخيطة بامراس من قشر جوز الهند المسمّى بالنرجيل ويخللونها بدسر من عود النخل فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سفوها بالسمن او بدهن الخروع وبدهن القرش وهو احسنها وانما يدهنون الجلاب لتليين عودها وترطيبها لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر واخشاب هذه الجلاب مجلوبة من الهند واليمن وشراعها حصر منسوجة من خوص شجر المقل فجميعها متناسبة في اختلاف البنية ووهنها . ولاهل عيذاب في المجيج احكام الطواغيت لانهم يشحنون المراكب بهم حتّى يجلس بعضهم على بعض كأنها اقفاص الدجاج حرصاً على الكراء حتّى يستوفي صاحب الجلبة ثمنها مرّة واحدة ولا يبالي بصنع البحر فيها

واهل عيذاب الساكنون بها طائفة من البجاة ولهم سلطان على انفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها وربما جاء في بعض الاحيان وقابل الوالي الذي من جانب الغز اظهاراً للطاعة . وطائفة البجاة اضلّ من الانعام سبيلاً واقلّ عقولاً لا دين لهم سوى كلمة التوحيد وهم عراة يستترون عوراتهم بخرق . انتهى

وذكر ابن جبير الغرناطي رحلته من مصر الى عيذاب وفصّل ما رآهُ اثناء الطريق من احمال الفلفل والقرفة وسائر السلع مطروحة لا حارس لها الى ان قال وكان نزولنا في عيذاب بدار تعرف بريح دار احد قوادها فكانت اقامتنا بها ثلاثة وعشرين يوماً في سوء حال وعيش رديء واختلال من الصحة لقلة الغذاء والهواء الحار الذي يذيب الاجسام وما قولك ببلاد كل شيء فيها مجلوب حتّى الماء والحلول بها من اعظم المكاره التي حُفّ بها السبيل الى البيت العتيق

وقال ابن بطوطة الرحّالة اكترينا الجمال من ادفو وسافرنا الى عيذاب مع طائفة من العرب فوجدنا اهلها من البجاة وهم قوم سود الالوان لا يورثون البنات شيئاً وكان اذ ذاك ثلثا محصل مدينة عيذاب لملك البجاة ويقال له الحدربي والثلث لملك مصر الناصر وكان ملك البجاة قدم اليها لحرب الاتراك فانهزموا امامه واحرقوا المراكب وحصلت فتن بين البجاة والترك وتعذّر سفرنا منها الى جدّة فعدت مع العرب الى صعيد مصر الى قوص

ويظهر من ذلك ان مدينة عيذاب كانت على ساحل البحر الاحمر تجاه مدينة جدة على ٢١ درجة من العرض الشمالي وانها كانت معروفة مطروقة الى ايام ابن بطوطة ولعلهُ زارها قبيل سنة ١٣٦٤ للميلاد ثم خربت وطمست آثارها وجهل موقعها الى ان اكتشفها وخطط موقعها جناب المستر فلاير الذي طاف تلك البلاد في الربيع الماضي

هذا ولا يبعد ان تكون كلمة عيذاب محرفة من كلمة اتيوبيا فان في العربية كثيرًا من الكلمات المحرّفة هذا التحريف وكلمة بشاري المعروفة الآن محرّفة من كلمة بجا القديمة . والطريق من قوص او اسوان الى عيذاب فجدة فمكة المكرّمة اقرب الطرق الى البيت الحرام قبل اكتشاف البخار وتسهيل سفر البحر به فان المسافة من اسوان الى عيذاب نحو ثلثمئة وخمسين ميلاً وعرض البحر الاحمر من عيذاب الى جدة نحو مئة وعشرين ميلاً ومن جدّة الى مكة اقل من مئة ميل فلا عجب اذا اختار السياح ذلك الطريق على غيره

باب الزراعة

المملكة النباتية في الحال والاستقبال

مقتطفة من خطبة الرئاسة للاستاذ غوديل رئيس مجمع تقدم العلوم الاميركي

(تابع ما قبله)

رابعًا الاخشاب التي تستعمل في النجارة والبناء . ان اكثر الاخشاب المستعملة الآن كان مستعملاً من قديم الزمان . وقد حاول البعض جلب الاخشاب الهندية والاسترالية الى اوربا لان خشبها صلب متين منسجم جميل المنظر ولكن نفقة جلبها كثيرة تحول دون استعمالها ولا بدّ ان توجه الهمة الى زرعها في غير مواطنها لكي تقرب من البلدان التي يراد استعمالها فيها اذ قد ثبت ان اشجارًا كثيرة نمت في غير مواطنها نموًّا اشد من نموها فيها (وعسى ان تجرّب زراعة هذه الاشجار الثمينة الخشب في القطر المصري فانهُ كان منذ عهد غير بعيد مملوءا بالحراج الكبيرة) . الاّ ان الحديد كاد يقوم مقام جانب كبير من الخشب الذي كان يستعمل في بناء البيوت والسفن فترى السفن الكبيرة والروافد واكثر الآلات والادوات التي كانت تصنع من الخشب صارت تصنع من الحديد . واذا زاد رخص الحديد والالومينيوم وغيرهما من المعادن زاد الاستغناء عن الخشب (هذا في البلاد التي تعتني بحراجها وتزرع عوض ما تقطعهُ منها وتزيدها سنويًا بحسب زيادة سكانها واما البلاد التي تقطع حراجها ولا تزرع بدلاً منها ككثير من البلدان الشرقية فلا يمضي وقت طويل حتّى تعمى وليس فيها خشب ولا حطب سواء زاد الاعتماد على الحديد ام لم يزد)

خامسًا النباتات ذات الالياف . ويراد بالالياف الالياف الحقيقية كالكتان والزغب